التصوف في بغداد في القرن السادس الهجري

الباحث/ أحمد إبراهيم عيسي محمد

المقدمة: الحياة العلمية وطبيعة التصوف في بغداد في القرن السادس الهجري

يعد العصر العباسي الأخير من العصور الإسلامية الزاهرة ، حيث أن الخلفاء العباسيين يهتمون بأهل العلم في هذا الزمن ، بل كان الخلفاء أنفسهم من محبي العلم ومشجعيه؛ ولذلك ازدهر العلم ، وكان الخلفاء يعقدون المجالس للعلم وللمناظرة بحضور عدد كبير من رجال العلم والفقهاء ،إذ شهدت بغداد وبلاد المشرق الإسلامي في هذا القرن ألوانًا من المجالس العلمية ، اختلفت أغراضها ومصدرها وأماكن انعقادها.

وكان لمدن كثيرة في المشرق الإسلامي دور كبير في تشجيع واحتضان العلماء والفقهاء والأدباء كنيسابور ومرو وأصفهان ، وشيراز وهمذان وسمرقند وغيرها من المدن ، على الرغم من معاناة هؤلاء العلماء والفقهاء في ظل التطورات السياسية التي شهدتها بغداد وبلاد المشرق الإسلامي ، وذلك بعد دخول السلاجقة مدينة بغداد وهيمنتهم على الخلافة العباسية ، والسياسة التي أتبعوها تجاه الخلفاء العباسيين.

ظلت بغداد وأمصار الدولة الإسلامية مركزًا للحياة العلمية نتيجة لتشجيع الخلفاء العباسيين ورعايتهم للعلم وأهله ، وتعددت مراكز نشر العلم والثقافة كالمسجد والمدارس وخزائن الكتب والربط ، وامتدت المجالس العلمية إلى قصور الخلفاء والأمراء والسلاطين والوزراء وبيوت العلماء ، فكان لها دور هام في نشر العلم والمعرفة في مختلف أمصار الدولة الإسلامية ، وانقسمت المجالس العلمية ، ما بين المجالس العلمية الخاصة ، والمجالس العلمية العامة.

Summary:

Scientific life and the nature of Sufism in Baghdad in the sixth century AH

The last Abbasid era is considered one of the prosperous Islamic eras, as the Abbasid caliphs care about the people of knowledge in this time, and the caliphs themselves were lovers and fans of science; Therefore, science flourished, and the Caliphs held councils for science and debate in the presence of a large number of scholars and jurists, as Baghdad and the countries of the Islamic East witnessed in this century a variety of scientific councils, the purposes, source and venues of which differed.

Many cities in the Islamic East had a great role in encouraging and embracing scholars, jurists and writers, such as Knysapur, Merv, Isfahan, Shiraz, Hamadhan, Samarkand and other cities, despite the suffering of these scholars and jurists in light of the political developments that Baghdad and the countries of the Islamic East witnessed, after the Seljuks entered the city of Baghdad and their hegemony On the Abbasid Caliphate, and the policy they followed towards the Abbasid Caliphs.

Baghdad and the cities of the Islamic State remained a center for scientific life as a result of the encouragement of the Abbasid caliphs and their care for science and its people, and there were many centers for the dissemination of science and culture such as mosques, schools, bookcases and interconnections. The Islamic state, and the scientific councils were divided between private scientific councils and general scientific councils.

١- المجالس العلمية الخاصة

يُقصد بها المجالس التي كانت تُعقد في قصور الخلفاء والسلاطين والوزراء ، إذ يجتمع العلماء والأدباء والفقهاء للمناظرة والمنافسة ، وكان يحضر هذه المجالس الخليفة أو الأمير أو السلطان[١]

وخلال القرن السادس الهجري نجد الخليفة العباسي المستظهر بالله (ت:٥١٢ه – ١١١٨م)[٢]، كان محبًا للعلم مكرمًا لأهله[٣] ،وكانت مجالسه عامرة مزدهرة بالعلماء والفقهاء والأجلاء حتى بلغوا عنده المنزلة الرفيعة والمقامات الخاصة[٤]

وقد بلغ من منزلة العلماء لدى الخليفة العباسي بقيام كبار موظفي الدولة بالتوسط عندهم في قضاء حاجاتهم، فقد أشارت المصادر التاريخية أن أباسعيد المعوجي استعان بالطبيب الواسطي في قضاء حاجته لدى الخليفة العباسي المستظهر بالله فكان له ماأراد[٥]

وأولى الخليفة المقتفى بأمرالله(ت: ٥٥٥ه)[٦] اهتمامًا كبيرًا بمجالس العلم إذ كانت مجالسه عامرة، فقرب العلماء وأمدهم بالعطايا والمنح[٧]، ففي عام (٥٥١ه/ ١١٦٦م) استقبل الخليفة المقتفى لأمر الله العلم قطب الدين أبا منصور المظفر أردشير العبادي(ت:٥٤٧ه)[٨] إذ (أقبل عليه الإمام المقتفى لأمر الله ، وقبله ورفعه وبجله وأمره بالجلوس في جامع القصر)[٩]

وكانت خلافة المستضئ بالله(٥٦٦ه–٥٧٥ه) حافلة بإقامة المجالس العلمية والأدبية[١٠] ، وقد أشار ابن الجوزي إلى بعض هذه المجالس التي كان حاضرًا فيها بحضرة الخليفة العباسي بقوله : "تقدم إلى الجلوس تحت المناظرة فاجتمع الناس فجاء مطر فمنع

---

(١)(سرور) محمد جمال الدين – تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق– نشر: دارالفكر العربي – ط٤ – ١٩٨٣م– ص١٠

(٢) (السيوطي) جمال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر الخضري(ت:٩١١ه) – تاريخ الخلفاء – تحقيق: محمد محيي الدين – نشر : مطبعة السعادة – القاهرة – ١٩٥٢– ص٤٢٦ – ٤٣٠

(٣)(ابن الجوزي) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت:٥٩٧ه) – المنتظم في تاريخ الأمم والملوك – تحقيق : محمد عبد القادرعطا – مصطفى عبد القادر عطا – نشر : دار الكتب لعمية – بيروت –١٤١٢ه – ١٩٩٢م – ج١٧ – ص١٢

(٤)(الذهبي) شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (ت:٧٤٨ه) العبر في خبر من غبر– تحقيق : صلاح الدين المنجد – وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية – ١٣٨٦ه – ج٤ – ص٢٦

(٥)(ابن أبي أصبيعة) أحمد بن القاسم بن خليفة بن يوسف (ت:٦٦٨ه) – عيون الأنباء في طبقات الأطباء – تحقيق : د . نزار رضا – نشر : دار مكتبة الحياة – بيروت – ص٣٤٤.

(٦) المقتفي لأمر الله: أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، ولد في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة، وأمه حبشية، وبويع له بالخلافة عند خلع ابن أخيه وعمره أربعون سنة، قال الذهبي: كان المقتفي من سروات الخلفاء، عالِمًا، أديبًا، شجاعًا، حليمًا، دمث الأخلاق، كامل السؤدد، خليقًا للإمامة، قليل المثل في الأئمة، لا يجري في دولته أمر –وإن صغر– إلا بتوقيعه، كتب في خلافته ثلاث ربعات، وسمع الحديث من مؤدبه أبي البركات بن أبي الفرج بن السني" . السيوطي – تاريخ الخلفاء– ص٣١٢. أيضًا : المكي– سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي –ج٣– ص٥٠٥. أيضًا : الزركلي –الأعلام–ج٥–ص٣١٧.

(٧) (العصامي) عبدالملك بن حسين بن عبدالملك(ت:١١١١ه)– سبط النجوم والعوالي– مصر– ص٣٧٤

(٨) المظفر بن أردشير بن أبي منصور العبادي أبو منصور الواعظ، من أهل مرو،وكان يعرف بالأمير، كان من أحسن الناس كلاما في الوعظ وأرشقهم عبارة، وقدم بغداد رسولًا من جهة السلطان سنجر فسمع منه أبو محمد الأخضر وغيره، مات في سلخ ربيع الآخر سنة سبع وأربعين وخمسمائة بعسكر مكرم كان قد توجه إليها رسولًا".
السبكي – طبقات الشافعية الكبرى – ج٧ – ص٣٠٠

(٩)(البنداري) الفتح بن علي بن محمد الأصبهاني(ت:٦٤٣ه)– تاريخ دولة آل سلجوق – دار الآفاق الحديثة – بيروت – ١٩٧٨م –ط١–ص١٩٨

(١٠) ابن كثير(ت:٧٧٤ه)– البداية والنهاية– تحقيق:عبدالله بن عبدالمحسن التركي–دار عالم الكتب للطباعة والنشر –١٤١٧ه ١٩٩٧م– ج١٢ – ص٢١٩

الحضور فتقدم بالبكور إلى دعوة أمير المؤمنين فحضرنا بكـرة الـسبت ..... وأربــاب الدولى والعلماء والمتصوفة"[١]

وكان أبو الفتح البادراني(ت: ٦٥٤ه)[٢] من أهل خراسان قدم بغدادوسكن بها ، وأخـذ عنه أهل الأدب علمًا كثيرًا"[٣]

.ويمكننا القول بأن مجالس الخلفاء العلمية كان لها الأثر العظيم في تقدم وازدهار الحركة العلمية والثقافية في بغداد وبلاد المشرق الإسلامي.

وكانت تعاليم الإسلام وتوجهاته الرائعة هي التي أيقظت أرواحهم وحركتهم على أن يعملوا وينتجوا أو يملؤا العالم آنذاك علمًا وحكمةً واختبارًا حتى الـذين أنتجـوا العلـوم المختلفة من غير المسلمين آنذاك هم أنتجوه في ظل الحكم العربي الإسـلامي والخلافـة العباسية ، في ظل التسامح الإسلامي والجو العلمي الإسلامي[٤]

وكذلك اهتم السلاطين والوزراء بالحركة العلمية في هذا العـصر بعـد أن شـاهدوا وتلمسوا اهتمام الخلفاء العباسيين بالعلم والعلماء ، وأدركوا أن العلم هـو سـياج الدولـة وعمادها ، وأن العلماء هم مشاعل الحضارة ،ورواد الأمة [٥]

ومن السطين السلاجقة الذين اهتموا بالعلم والعلماء أيضًا السلطان أبو القاسم محمـود بن محمد ملكشاه (ت:٥٢٥ه) [٦]، إذ عرف عنه اطلاعه على العلوم العربيـة، وإن كـان عارفًا بالتواريخ والسير شديد الميل إلى أهل العلم والخير[٧]

ولقد لعبت مجالس الخلفاء العباسيين وبعض السلاطين السلاجقة ووزرائهم دورًا كبيرًا وبارزًا في الحياة العلمية والفكرية من خلال اهتمامهم بالعلم والعلمـاء ، ممـاأدى إلـى اتساع حركة العلم والتعليم وازدهار العلوم.

---

(١) ابن الجوزي –المنتظم – ج١٨– ص٢١٩

(٢) عبد اللَّه بن أبى الوفا محمد بن الحسن الإمام نجم الدين أبو محمد البادرانى، أحد رؤساء الشافعية وعلمائهم، ولد سنة أربع وتسعين وخمسمائة، وبرع في المذهب وساد حتى درس بنظامية ببغداد، وسمع وحدث وبنى بدمشق مدرسة حسنة وشرط على فقهائها العزوبية وأن لا يكون الفقيه في غيرها من المدارس، ويرسل عن الديوان العزيز غير مرة، وأجبر على القضاء في آخـر عمره فباشره خمسة عشر يومًا ثم جاءه القضاء سنة أربع وخمسين وستمائة".

(ابن الملقن)سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: ٨٠٤ ه)– العقد المذهب في طبقات حملة المذهب– تحقيق: أيمن نصر الأزهري – سيد مهني –نـشر: دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان – ط١، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م –ص٣٦٤

(٣) ياقوت الحموي –معجم الأدباء– تحقيق:فريدعبدالعزيز– دار الكتب العلمية –بيروت– ج٦– ص٢٠٨

(٤)(مرسي)عبدالسليم – ميسرات البحث العلمي عند المسلمين– وزارة التعليم العالي– السعودية–جامعة محمد بن سعود الإسلامية –دار الثقافة والنشر– السعودية –١٩٨٨م– ص٧٠–٧١

(٥) نفس المرجع – نفس الصفحة

(٦) مغيث الدّين أبو القاسم محمود بن غياث الدّين محمّد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقيّ السّلطان، مولده ليلة السّبت الحادي عشر من شوّال سنة سبع وتسعين وأربعمائة، ولمّا مات أبـوه غياث الدّين في الرّابع والعشرين من ذي الحجّة سنة إحدى عشرة وخمسمائة تولّى مكانه، وخطب له ببغداد وبالحرمين الشريفين، وسنّه تقارب الخمس عشرة سنة، إليه تنسب المدرسة المغيثيّـة ببغداد".

(ابن الفوطي) كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن أحمد المعروف الشيباني (ت:٧٢٣ هـ)– مجمع الآداب في معجم الألقاب –تحقيق: محمد الكاظم – نشر: مؤسسة الطباعة والنشر– وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي، إيران – ط١، ١٤١٦ ه –ج٦ – ص٤٢٦

(٧) ابن العماد الحنبلي (ت:١٠٨٩ه) –شذرات في أخبارمن ذهب –تحقيق : عبدالقادر الأرنؤوطي– محمود الأرنؤوطي– نشر : دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت – ج٤–ص٧٦

٢- المجالس العلمية العامة

يقصد بالمجالس العلمية العامة تلك التي كانت يعقدها العلماء في المساجد والمدارس وبيوت العلماء أنفسهم[١]، وكان لاهتمام بعض الخلفاء العباسيين في إقامة هذه المجالس العلمية وتشجعيها أثر كبير واضح في تقدم وازدهار الحياة العلمية والثقافية في بغداد وبلاد المشرق الإسلامي.

وقد أشار جمال الدين أبو الفرج الجوزي(ت:٥٩٧ه)[٢] في كتابه " المنتظم" وصفًا دقيقًا لتلك المجالس العلمية ،وكذلك يذكر ابن الجوزي مجالسه العلمية التي كان يعقدها لعامة الناس في بيته وفي المساجد والتي كان يحضرها أعداد كبيرة من طالبي العلم والمعرفة ويفوق حدود التصور[٣]

ويجدر بنا أن نشير إلى أن للعلماء سبب في اختيارهم لعقد تلك المجالس العلمية ، هو إما لتوفر الكتب والمصنفات التي قد يحتاجها الناس ، أو عدم قدرة العالم أو المحدث على التعليم في مكان آخر غير بيته ، إما لظروفه الصحية التي تمنعه من ذلك ، أو لأن دورهم واسعة تستقطب الحضور أو غيرها من الأسباب.

إذ كان لبيوت العلماء دور مؤثر في تطور المجالس العلمية والثقافية ، حيث كانت بيوت العماء تدور فيها المناقشات العلمية والمحاورات والمناظرات التي كانت تتناول فروع العلم المختلفة، كالحديث والفقه والأدب وغيرها .

وممن برز في مجالس العلم فخري الإسلام عبد الواحد بن إسماعيل أبو المحاسن الروياني قاضي القضاة (٥٠٢ه)[٤] ، كان من رؤوس الأفاضل في أيامه مذهبًا وأصولًا وخلافًا ، ولد في ذي الحجة عام(٤١٥ه)، وقتله الباطنية يوم الجمعة الحادي عشر من محرم عام(٥٠٢ه) بجامع آمل بعد الفراغ من مجلس الإملاء[٥]

---

(١)(ذنون) فارس محمود – المكانة الإجتماعية للفقهاء في العراق في العصر العباسي –رسالة ماجستير غير منشورة –جامعة الموصل – ١٩٨٩م –ص١٠٧

(٢) أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حماد بن محمد بن جعفر الجوزي بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن محمد بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنه،وبقية النسب معروف القرشي التيمي البكري البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ؛ كان علاّمة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ،صنف في فنون عديدة، منها "زاد المسير في علم التفسير"أربعة أجزاء أتى فيه بأشياء غريبة، وله في الحديث تصانيف كثيرة، وله " المنتظم " في التاريخ، وهو كبير، وله " الموضوعات"، وبالجملة فكتبه أكثر من أن تعد". ابن خلكان– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان– ج ٣ –ص١٤٠

(٣) ابن الجوزي– المنتظم – ج ٣ –ص١٤٠– ١٤٣.

(٤) أبو المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل بن أحمد بن محمد الروياني الفقيه الشافعي؛ من رؤوس الأفاضل في أيامه مذهباً وأصولاً وخلافاً، كان له الجاه العظيم والحرمة الوافرة في تلك الديار، وكان الوزير نظام الملك كثير التعظيم له لكمال فضله. رحل إلى بخارى وأقام بها مدة ودخل غزنة ونيسابور، ولقي الفضلاء، وحضر مجلس ناصر المروزي وعلق عنه وسمع الحديث، وبنى بآمل طبرستان مدرسةً، ثم انتقل إلى الري ودرّس بها، وقدم أصبهان وأملى بجامعها، وصنف الكتب المفيدة: منها " بحر المذهب ،وهو من أطول كتب الشافعيين وكتاب " مناصيص الإمام الشافعي " وكتاب " الكافي " وكتاب " حلية المؤمن " وصنف في الأصول والخلاف، ونقل عنه أنه كان يقول: لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من خاطري، والروياني: بضم الراء وسكون الواو وفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف نون، هذه النسبة إلى رويان، وهي مدينة بنواحي طبرستان خرج منها جماعة من العلماء".
ابن خلكان – وفيات الأعيان – ج٣ –ص١٩٨.
أيضًا : (الأسنوي) جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن(ت:٧٧٢ه) – طبقات الشافعية– تحقيق: عبدالله الجبوري – مطبعة الإرشاد –بغداد – ١٩٧٠م– ج١ –ص٥٦٥.
ابن العماد – شذرات الذهب في أخبار من ذهب – ج٦ –ص٨

(٥) ابن تغرى بردي) جمال الدين أبو المحاسن يوسف التابكي(ت:٧٨٤ه) – النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة– نشروزارة الثقافة والإرشاد القومي– مصر – ج٥– ص١٩٧.
أيضاً :(اليافعي) أبو محمد عبدالله سعيد بن علي (ت:٧٦٨ه) –مرآة الجنان –وضع حواشيه : خليل منصور –نشر : دار الكتب العلمية –بيروت – ١٤١٧ه– ١٩٩٧م– ج٣– ص١٣١.
السمعاني – الأنساب – ج٣ –ص١٠٦.

أما العالم صاعد بن سيار بن عبدالله بن إبراهيم القاضي أبو العلاء (ت:٥٢٠ه)[١]، كان من أهل هراة سمع الحديث من أبي إسماعيل عبدالله بن محمد الأنصاري، وقدم بغداد حاجًا عام تسع وخمسمائة للهجرة ، فحدث ووعظ بها كتاب (الترمذي) وغيره ، وأملى مجالسه بجامع القصر ببغداد ، وروى عنه محمد بن ناصر[٢]. وممن برع في مجالس العلماء ، العالم الزاهر بن طاهر بن محمد أبو القاسم بن أبي عبد الرحمن بن أبي بكر الشحامي(ت: ٥٣٣ه)[٣]، رحل في طلب العلم والحديث ، وعمَر ، وكان مكثرًا متيقظًا صحيح السماع ، كان يستملى على شيوخ نيسابور، وأملى في جوامع نيسابور قريبًا من ألف مجلس، وكان صبورًا على القراءة عليه، يكرم الغرباء القادمين عليه ويمرضهم ،ويداويهم ويعيرهم الكتب[٤]

ومن مجالس العلماء مجلس السمعاني الإمام الحافظ أبي بكر بن أبي المظفر السمعاني المروزي (ت:٥٦٢ه)[٥] كان من علماء المشرق الإسلامي البارزين ومن علماء الحديث، وكان له مجلس في مرو يروي فيه الحديث، ويروي الحديث بأسانيده ، وكان قد أملى مائة وأربعين مجلسًا بجامع مرو[٦]

وقد كان لمجالس الوعظ الدور الكبير بالتوحيد والإرشاد والدعوة إلى العودة والإلتزام بأصول الدين الإسلامي ، حيث كان لجهود العلماء وكثرت تخصصاتهم الأثر الكبير في تنوع الحلقات العلمية والفكرية في بغداد والمشرق الإسلامي ، من حيث مناهجها وطرق تدريسها، شملت مجالس الإملاء والوعظ والتذكير والفقه ، فأثرت الحياة العلمية

---

(١) ابن محمد بن عبد الله، المحدث الحافظ،أبو العلاء الإسحاقي، الهروي، الدهان، حج وحدث ببغداد عن عبد الرحمن بن أبي عاصم، وأبي عامر الأزدي، وشيخ الإسلام أبي إسماعيل، وعلي بن فضال النحوي، وعدة، كان حافظًا متقنًا، واسع الرواية، كتب الكثير، وجمع الأبواب، وعرف الرجال، حدثنا عنه ابن ناصر،وأبو العلاء أحمد بن محمد بن الفضل، وأبو المعمر الأنصاري، مات بقرية غورج بقرب هراة، في ذي القعدة سنة عشرين وخمس مائة كهلًا".

الذهبي – سير أعلام النبلاء –ج١٤– ص٤٠٣.

أيضًا: (الدمشقي) الإمام بن ناصر الدين – التبيان لبديعة البيان – دراسة وتحقيق: د.عبدالسلام الشيخلي– عبدالخالق المزوري– سعيد البوتاني– إسماعيل الكوراني– د نشر : دار النوادر – سوريا – دمشق– ط١– ١٤٢٩ه –٢٠٠٨م– ج٢ – ص١٢٤٠.

أيضًا: السمعاني – التحبير – ج١ – ص٣٣٢

(٢)(القرى) تقي الدين بن عبد الباقر التميمي (ت:١٠٠٥ه) – طبقات السنية في تراجم الحنفية – تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو– نشر : دار الرفاعي – الرياض – ١٤٠٣ه – ج٤ –ص٧٩.

(٣) *ابن محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف بن محمد بن مرزبان، الشيخ العالم، المحدث المفيد المعمر، مسند خراسان، أبو القاسم بن الإمام أبي عبد الرحمن، النيسابوري الشحامي، المستملي الشروطي، الشاهد، ولد في ذي القعدة سنة ست وأربعين وأربع مائة، واعتنى به أبوه، فسمعه في الخامسة وما بعدها، واستجاز له، وكان ذا حب للرواية، فرحل لما شاخ، وروى الكثير ببغداد وبهراة، وأصبهان، وهمذان، والري، والحجاز، ونيسابور، لكنه كان يخل= بالصلاة فترك الرواية عنه غير واحد من الحفاظ تورعًا وكابر وتجاسر آخرون،وقد اعتذر زاهر عن ذلك بأصبهان، ولعله تاب ورجع عن ذلك في آخرعمره، مات: بنيسابور، في عاشرربيع الآخرسنة ثلاث وثلاثين وخمس مائة"."

ابن كثير – البداية والنهاية – ج١٢– ص٢١٥. أيضًا : الذهبي – سير أعلام النبلاء– ج ١٤ –ص ٤٣١

أيضًا: (ابن حجر العسقلاني) أابو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (ت: ٨٥٢ه) – لسان الميزان– تحقيق: دائرة المعرف النظامية – الهند – نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت – لبنان –ط٢ ، ١٣٩٠هـ /١٩٧١م – ج٢– ص٤٧٠.

(٤) ابن الجوزي– المنتظم – ج١٧ – ص٣٣٦ –٣٣٧

(٥) أبو سعد السمعاني تاج الإسلام عبد الكريم بن محمد ابن منصور المروزي ،الشافعي، محدث المشرق، وصاحب التصانيف، الكثيرة، والفوائد الغزيرة، والرحلة الواسعة، عمل معجم شيوخه في عشر مجلدات كبار، وكان حافظًا ثقة مكثرًا واسع العلم كثير الفضائل ظريفًا لطيفًا متجملًا نظيفًا نبيلًا شريفًا ، ولد في شعبان سنة ست وخمسمائة، وتوفي في غرة ربيع الأول بمرو".

الذهبي – العبر في خبر من غبر – ج٣ – ص٣٨. ابن العماد – شذرات الذهب في أخبار من ذهب –ج٦ – ص٣٤٠

(٦) (الذهبي) شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان(ت:٧٤٨ه)– تذكرة الحفاظ – نشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ١٤١٩ه– ١٩٩٨م–ط١ – ج٤– ص٤٤

بمؤلفات ضخمة ساهمت في تعزيز الصلات العلمية بين مركز الخلافة العباسية وبلاد المشرق الإسلامي.

فلقد كانت بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، ومقرًا للعلماء والأدباء على اختلاف تخصصاتهم ، وكثرت رحلات العلماء منها وإليها ، وكان لهم الدور الكبير بما نشروه من علم وفكر في إغذاء الحركة العلمية والثقافية الإسلامية في القرن السادس الهجري.

تُعد مجالس الوعظ من أبرز مظاهر النشاط العلمي والإجتماعي في بغداد في العصر العباسي؛ لما لها دور في تزويد الناس بالمعرفة وتقويم السلوك العام، والمسامهة في زيادة وفعل الخير في المجتمع.

الوعظ هو النصح والتذكير بالعواقب ، يقال وعظته وعظًا ، وعظة فاتعظ ،أي قبل الموعظة، والوعظ والموعظة والعظة سواء[١]

ويقال أيضًا:" الوعظ هو التذكير بالخير فيما يرق له القلب، وهو أيضًا: التخويف، والواعظ هو الناصح ، والجمع وعاظ" [٢]

ولقد حث القرآن الكريم المسلمين على سماع الوعظ ؛ لأهميته على سلوك المسلم ، فقال تعالى "**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا** " [٣]، وفي آية آخرى يقول:" **وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ** "[٤]

وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خير الواعظين ، قال الصحابي الجليل العرباض بن سارية (ت:٧٥ه)[٥]:" وعظنا رسول الله– صلى الله عليه وسلم– موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون "[٦]

انتشرت مجالس الوعظ في بغداد في العصر العباسي،وبالأخص في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، في أماكن عدة، كالجوامع والمدارس وغيرها،والمنازل وكثير من دور العبادة، وحظيت هذه الدور بإقبال كبير.

---

(١)(الزبيدي) أبو الفيض محمد المرتضى – تاج العروس من جواهر القاموس – بيروت – ج٥–ص٢٦٦

(٢) (الفراهيدي) الليل بن أحمد عبدالرحمن – العين – تحقيق– د: مهدي المخزومي / د. إبراهيم السامرائي – دار الحرية للطباعة – بغداد – ١٤٠١ه– ١٩٨١م – ج٢ – ص٢٨٨

(٣) سورة النساء – (٦٦)

(٤) سورة هود – (١٢٠)

(٥) العرباض بن سارية السلمي أحد أصحاب الصفة بالشام، وكنيته أبو نجيح،العرباض بن سارية السلمي يسكن حولة حمص، وكان شيخًا كبيرًا من الصحابة رضي الله عنهم، ثم نزل حمص، وحديثه في السنن الأربعة".

(ابن سعد) أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي بالولاء،البغدادي (ت: ٢٣٠هـ) – الطبقات الكبرى – تحقيق: محمد عبد القادر عطا – نشر: دار الكتب العلمية – بيروت – ط١– ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠ م–ج٤–ص٢٠٨.

ياقوت الحموي– معجم البلدان– ج٥– ص١٧٩. أيضًا: (اليافعي– مرآة الجنان –ج١–ص١٢٥.

أيضًا : ابن العماد– شذرات الذهب في أخبار من ذهب – ج١– ص٣١٣

(٦) (أبو داوود) سلمان بن الأشعث بن إسحق – السنن – تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد– نشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٤١٤ه – ج٤ – ص٢٠١

قال الرحالة ابن جبير(ت:٦١٤ه) عن مجالس الوعظ في بغداد أثناء زيارته لها عام (٥٨٠ه):" فلا يكاد يخلو من يوم من أيام جمعاتهم من واعظ يتكلم فيه، فالموقف فيهم لا يزال في مجلس ذكر أيامه كلها، لهم في ذلك طريقة مباركة ملتزمة"[١]

ووصف أيضًا أحد الوعاظ قائلًا :" ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق الوعظ ، وآيات بينات من الذكر الحكيم طارت لها القلوب اشتياقًا، وذابت بها الأنفس احتراقًا، إلى أن على الضجيج وتردد بشهقاته النشيج ، وأعلى التائبون بالصباح......، ومنهم من يغشى عليه فيرفع في الأذرع إليه، فشاهدنا هولًا يملأ النفوس إنابة وندامة ، ويذكرنا هول يوم القيامة "[٢]

ومن أشهر وعاظ بغداد في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي:" عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن أبو نصر القشيري (ت:٤٦٥ه)[٣]، كان له مجلس وعظ ببغداد، اشتهر بفضله وعلمه، وشهدت بعض مجالسه إسلام جماعة من أهل الذمة"[٤]

وهذه من ميزات مجالس الوعظ والعلم في بغداد ، وهي إسلام عدد من أهل الذمة ، فضلًا عن توبة التائبين.

ومن وعاظ بغداد أيضًا: عبدالله بن أبي بكر الشاشي(ت:٥٢٩ه)[٥] ، قال عنه ابن الجوزي:"كان فاضلًا ظريف الشمائل ، مليح المحاورة، حسن العبارة، حضرت مجلس وعظه، وكان ينشأ الكلام المطابق المجانس، ويقوله في الوعظ......"[٦]

ولعل من أشهر وعاظ بغداد في ذلك القرن هو الواعظ المشهور"ابن الجوزي"، (ت٥٩٧ه) ، الذي كانت مجالسه عادة من أكثر المجالس حضورًا في العالم الإسلامي[٧]

ولم يكتف الوعاظ في العصر العباسي بوعظ العامة من الناس وإرشادهم، بل إن البعض منهم كان يجد في وعظ الحكام والأمراء والوزراء ثوابًا له، وكلمة حق يجب أن تقال

---

(١) ابن جبير – رحلة ابن جبير – ص١٧٤

(٢) نفس المصدر – ص١٧٧

(٣) القشيري هو:" هوأبو القاسم عبدالكريم القشيري النيسابوري،ولد عام ٣٧٦هـ ،وتوفي عام ٤٦٥هـ بمدينة نيسابور التي كانت إقامته فيها وهومن روادالصوفية وله تواليف كثيرة في التصوف والتفسير والأدب" (ابن خلكان ــ وفيات الأعيان ــ ج٣ ــ ص٢٠٥) (الزركلي ــ الاعلام ــ ج٤ ــ ص٥٧) (عبد المنعم الحفني ــ الموسوعة الصوفية ــ ص٣٢٣

(٤) السبكي) أبو نصر عبد الوهاب بن علي –طبقات الشافعية الكبرى – تحقيق : عبد الفتاح الحلو – محمود الطناحي– ط٢– مطبعة هجر – مكة – ١٤١٣ه– ١٩٩٢م–ج٧– ص١٦١

(٥) أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي أبو المظفر بن أبي بكر الفقيه الشافعي قرأ الفقه على أبيه فأحكمه وأفتى وسمع الحديث من أبي عبد الله بن طلحة وحدث باليسير ،روى عنه أبو بكر بن كامل وأبو القاسم الدمشقي في معجميهما توفي سنة تسع وعشرين وخمس مائة". الصفدي – الوافي بالوفيات –ج ٧ – ص٢١١

(٦) ابن الجوزي – المنتظم – ج١٠ – ص٣٧ – ٣٨.

(٧) سبط ابن الجوزي– مرآة الزمان – ج٨ – ص٤٨١

عنده، فنجد أبوسعيد المعمر بن أبي عمامة (ت:٥٠٦ه)[(١)] يعظ الوزير نظام الملك وزير السلطان شاه.."[(٢)]

إن مجالس الوعظ في بغداد في القرن السادس الهجري كانت مكانًا من أماكن التعليم والتوعية الدينية والإجتماعية، وقد كانت منتشرة بشكل كبير في نواحي بغداد المختلفة، وتشهد إقبالًا كبيرًا من الناس، وقد برز في مجالس الوعظ الديني عدد كبير من الوعاظ الذين لم تقتصر مهمة بعضهم على وعظ الناس ، وإنما كانوا يحرصون على وعظ الحكام والمسئولين.

طبيعية التصوف في بغداد حتى نهاية القرن الخامس الهجري

إن تاريخ التسمية باسم "الصوفي" يرجع إلى فترة أقدم من الفترة التي أنشئت فيها بغداد، والتي شرع المنصور ببنائها (١٤٥ه)، فنجد السراج الطوسي (ت:٣٧٨ ه) [(٣)] ينفى أن تكون التسمية بالصوفية محدثة أحدثها البغداديون"[(٤)]

أما القشيري فيؤكد (ت:٤٦٥ ه) يؤكد أن التسمية أطلقت قبل سنة مائتي للهجرة"[(٥)]

وقد أورد الجاحظ (ت:٢٥٥ ه)[(٦)] اسم الصوفية ضمن ما أسماه "الصوفية من النساك"، و"الصوفية" في كتابيه البيان والتبين، والحيوان[(٧)]

ولذلك نجد الكلاباذي(ت:٣٨٠ ه)[(٨)] يوضح لنا رأي حول أصول التسمية فيقول:"أنها موجود منذ عهد النبي صلي الله عليه وسلم، وأصلها الصَفِيَة والصفية، نسبة إلى أهل الصف الأول وإلى أهل الصفة، وإنما أصبحت صوفية بسبب"تداول الألسنة"[(٩)]

---

(١) عثمان بن علي بن أبي عمامة، المفتي الواعظ الكبير، أبو سعد المعمر بن علي بن المعمر بن أبي عمامة البغدادي، الحنبلي، ولد سنة تسع وعشرين وأربع مائة، كان فقيهًا مفتيًا واعظًا بليغًا فصيحًا، له قبول تام، وخاطر حاد، وله كلمات في الوعظ حسنة، ورسائل مستحسنة، وجمهور وعظه حكايات السلف، وكان يحصل بوعظه نفع كثير وكان أبو سعد يعظ بحضرة الخليفة [المستظهر] والملوك، ووعظ يوما نظام الملك الوزير بجامع المهدي، وتوفي أبو سعد يوم الاثنين ثامن عشري ربيع الأول،وله إحدى وتسعون سنة، ودفن من الغد بمقبرة باب حرب".
الذهبي- سير أعلام النبلاء- ج١٤- ص٣٣٤. أيضًا: ابن العماد –سير أعلام النبلاء- ج١٤- ص٣٣٤

(٢) ابن الجوزي- – المدهش- تحقيق : د. مروان قباني –نشر : دار الكتب العلمية –بيروت –لبنان –ط١ – ١٤٠٥ه – ١٩٨٥م – ج٩ –ص١٧٣ – ١٧٤.

(٣)*السراج الطوسي هو:"أبو نصر السراج،عبدالله بن علي الطوسي الزاهد،صاحب كتاب اللمع في التصوف،روى عن جعفر الخلدي،وأبوبكر محمد بن داود الدقي(ت:٣٧٨ه)" :(الأصبهاني- حلية الأولياء–ج٩–ص٢٣٨) (ابن الجوزي- صفة الصفوة- ج٢ ص٣١٧)(ابن العماد شذرات الذهب- ج ٤–ص٤١٣)(الزركلي–الأعلام –ج٣–٣٥٢(

(٤)(الطوسي) أبونصرعبدالله بن علي أبو السراج (ت:٣٧٨ه) – اللمع في تاريخ التصوف الإسلامي- ضبطه وصححه:كامل مصطفى الهنداوي- دار الكتب العلمية –بيروت –ط١–٢٠٠١م – ص٢٤ –٢٥

(٥) القشيري –الرسالة القشيرية – ص١٢–١٣

(٦) الجاحظ هو:" أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي المعروف بالجاحظ، البصري العالم المشهور، صاحب التصانيف في كل فن، له مقالة في أصول الدين، وإليه تنسب الفرقة المعروفة بالجاحظية من المعتزلة، كان بحرًا من بحور العلم، رأسًا في الكلام والإعتزال، عاش تسعين سنة،فلج في آخر عمره،كان مشوه الخلق،ومات والكتاب على صدره،له تصانيف كثيرة منها :"الحيوان،البيان والتبيين- سحر البيان- التاج –البخلاء – المحاسن والأضداد- وغيرها" (ابن خلكان- وفيات الأعيان- ج٣–ص٤٧١) (ابن العماد – شذرات الذهب- ج ٣- ص٢٣١) (الزركلي–الأعلام –ج٥–ص٧٤).

(٧)(الجاحظ) عمر بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي ، أبو عثمان (ت:٢٥٥ ه) – الحيوان – تحقيق: عبدالسلام هارون – نشر مطبعة مصطفي الحلبي وأولاده_ ط٢ –ج٤ –ص٤٢.
الجاحظ) – البيان والتبين – نشر مكتبة الخانجي القاهرة – ١٩٩٨ م – ج١- ص٣٦٦

(٨) الكلاباذي هو:" هو أبو بكر محمد بن إسحق الحنفي البخاري الكلاباذي ، أطلقوا عليه تاج الإسلام لعلمه وفضله ، فقد كان موسوعة ، وكان من علماء الصوفية، وله كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف جمع فيه مذهبه وأحوالهم، حتي قيل أن كتابه صورة للتصوف في زمنه ، وهو القرن الرابع الهجري ، توفي الكلاباذي سنة ٣٨٠هـ "
(حاجي خليفة – كشف الظنون – ص٤١٩) (الزركلي ــ الاعلام – ج٥- ص ٢٩٥.) (عبد المنعم الحفني –الموسوعة الصوفية- ص٣٣٨).

(٩)(الكلاباذي) أبو بكر محمد بن إسحق (ت:٣٨٠ ه) – التعرف لمذهب أهل التصوف – ضبطه وعلق عليه: أحمد شمس الدين – ط١ – ١٤١٣ ه – ١٩٩٣ م – ص١٧- ١٨

أيضًا ابن خلدون (ت:٨٠٨ ه)[١] يقدم لنا تحليلًا دقيقًا عن الصوفية، وعن علم التصوف، في كتابه المقدمة إذ يقول:"هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عن سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والإنقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها.....، وكان ذلك عامًا في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال عن الدنيا في القرن الثاني ومابعده، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"[٢]

ولذلك يتبين لنا أن كلا من: السراج الطوسي(ن:٣٧٨ه)، والكلاباذي(ت:٣٨٠ه)، والقشيري (ت:٤٦٥ه)، يؤكدون على أن نهج المتصوف أصيل في الإسلام بصرف النظر عن الموقف تجاه حدوث التسمية أو أصالتها."

ولذلك فقد شهد القرن السادس الهجري نضوج التصوف من حيث هو حركة اجتماعية كان لها أثرها الواضح في مختلف الجوانب الإجتماعية والثقافية والسياسية في بغداد.

إن دراسة التصوف في القرن السادس في بغداد تمهد لفهم حركة التصوف وتطوراتها في القرون التالية في مختلف بلاد الإسلام، كما أنه يمهد لفهم الدور الذي قاموا به سواء في البلاد المجاورة أو البعيدة عن بغداد، كما أن التصوف صبغ المجتمعات الإسلامية عامةً بصبغته الخاصة لمدة غير قصيرة.

فأكثر الدراسات عن التصوف نادرًا ما تصل القرن السادس الهجري، وما إن وصلت فإنها غالبًا ما تركز اهتماماتها على معالجة ما أطلق عليه اسم "التصوف الفلسفي"، ولذلك سنبين كيف اختلف التصوف البغدادي في القرن السادس الهجري عنه في الفترة السابقة، وما هي أبرز ملامح الاستمرار فيه؟ ومن هم أبرز شيوخ التصوف البغدادي وتلاميذهم وخلفياتهم وعلاقاتهم الرسمية والشعبية؟.

أما بالنسبة لمكانة التصوف من بقية العلوم الشرعية، فيجعل السراج الطوسي (ت:٣٧٨ ه)

---

(١) ابن خلدون هو:" هوعبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، وليّ الدين الحضرميّ الإشبيلي، من ولد وائل بن حجر: الفيلسوف المؤرخ، العالم الإجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية، ومولده ومنشأه بتونس. رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان والأندلس، وتولى أعمالًا، واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس. ثم توجه إلى مصر فأكرمه سلطانها.وولي فيها قضاء المالكية، ولم يتزيّ بزيّ القضاة محتفظًا بزيّ بلاده،وعزل، وتوفي فجأة في القاهرة". "
(التنبكتي ــ نيل الإبتهاج – ص٢٥٢) (ابن العماد الحنبلي ــ شذرات الذهب ــ ج٩ ــ ص١١٤) (الزركلي ــ الأعلام– ج٣ ــ صـــ ٣٣٠).

(٢) ابن خلدون – مقدمة ابن خلدون – موقع الوراق – ص٢٨١

علوم الشريعة أربعة أقسام: علم الرواية، وعلم الدراية،"وهو علم الفقه والأحكام، وعلم القياس وهو علم الجدل وإثبات الحجة على المخالفين، وأعلاها وأشرفها هو علم الحقائق والمنازلات وعلم المعاملة والمجاهدات وما يتصل بها من تصحيح النوايا والإرادات وتصفية السرائر وعلم القلوب الذي هو علم التصوف، فإذا اجتمعت هذه الأقسام الأربعة في واحد فهو الإمام الكامل، وهو القطب وهو الحجة والداعي إلى المنهج والمحجة"[١]

وقد شهد التصوف عددًا من التطورات الهامة حتى القرن الرابع الهجري، أوجزها الكلاباذي (ت:٣٨٠ه) على نحو جلي، ففي الفترة التي عاش فيها الصحابة والتابعون وتابعو التابعين كانت القدوة تغني عن القول، ولكن بعد أن قلت الرغبة في هذا العلم وفتر الطلب له، حدث تطور تام تمثل في الكلام في علم التصوف وتدوينه في رسائل وكتب مع وجود رجال تتسع صدورهم لفهمه.

ثم تطور الأمر إلى أن ذهب المعنى وبقى الاسم، وغابت الحقيقة وبقى الرسم، وادعى التصوف من لم يعرفه وتحلى به من لم يصفه، وكتمه بصدقه من أظهره ببيانه، وأدخل في التصوف ما ليس منه، ونسب إليه ما ليس فيه، فجعل حقه باطلاً، فانفرد المتحققون فيه وسكتوا غيرة أن يدعيه من ليس من أهله، فنتج عن ذلك أن نفرت قلوب الناس من التصوف فذهب العلم وأهله، إلى أن صار الجهال علماء ، والعلماء أذلاء[٢] ،فهذا المطهر المقدسي(ت:٣٥٥ ه)[٣] في كتابه "البدء والتاريخ" في حديثه عن فرق الصوفية، لا يذكر لهم حسنة واحدة"[٤]

كان ذلك بسبب حساسية الفقهاء تجاه الصوفية ، وهي حساسية استمرت حتى جاء متصوفة أمثال عبد الكريم القشيري (ت:٤٦٥هـ) الذي مهد الطريق لأبو حامد الغزالي (٥٠٥هـ)[٥] ، حتى أنه كادت أن تتلاشى هذه الحساسية مع مطلع القرن السادس الهجريين الفقهاء والصوفية ، ويؤكد ذلك ما ورد عن الجنيد (ت:٢٩٧هـ) [٦] أنه قال

(١) الطوسي – اللمع –ص٤٥٥– ٤٥٨

(٢) الكلاباذي –التعرف لمذهب اهل التصوف –ص٦-٧

(٣) المطهر المقدسي هو:" مطهر بن طاهر المقدسي: مؤرخ، نسبته إلى بيت المقدس، دل تحقيق المستشرق (كليمان هوار) على أنه مصنف كتاب (البدء والتاريخ) ستة أجزاء، مع ترجمتها إلى الفرنسية، وله بقية ما زالت مخطوطة، وكان المعروف أنه من تأليف أبي زَيْد (أحمد بن سهل) البلخي، كما في كشف الظنون وخريدة العجائب، إلا أنّ البلخي توفي سنة ٣٢٢ وكتاب (البدء والتاريخ) صنف سنة ٣٥٥ هـ وقال هوار: كان مطهر في (بست) من بلاد (سجستان) . وزاد (بروكلمن) أنه توفي فيها. " . (الزركلي –العلام –ج٧ –ص٢٥٣).

(٤) المقدسي (ت:٣٥٥ه) – البدء والتاريخ – نشر مكتبة القافة الدينية – بورسعيد – ج٥ – ص١٤٨

(٥) الغزالي :"هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي أبو حامد ،حجة الإسلام،فيلسوف متصوف، له نحو مائتي مصنف ،مولده ووفاته في الطبران (قصبة طوس بخراسان) رحل إلى نيسابور ثم إلى بغدا فالحجاز فبلاد الشام فمصر ، وعاد إلى بلدته ، نسبته إلى صناعة الغزل(عند من يقول بتشديد الزاي)، أو إلى غزالة من قرى (طوس) لمن قل بالتخفيف،من كتبه إحياء علوم الدين – تهافت الفلاسفة – الإقتصاد في الإعتقاد– محك النظر ــــــ وغيره... . (ابن خلكان– وفيات الأعيان–ج٤–ص٥١٢) (الزركلي – الأعلام – ج٧–ص٢٢)(ابن العماد –شذرات الذهب–ج٦–ص١٨

(٦) الجنيد:" هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزاز القواريري، الزاهد المشهور؛ توفي عام ٢٩٧هـ، أصله من نهاوند، ومولده ومنشؤه العراق، وكان شيخ وقته وفريد عصره، وكلامه في الحقيقة مشهور مدون، وتفقه على أبي ثور صاحب الإمام الشافعي رضي الله عنهما". (الأصبهاني – حلية الأولياء ـ ج١٠ ـ ص٢٥٥) ـ (ابن خلكان –وفيات الأعيان ـ ص٣٧٤) (الزركلي ـ الأعلام ـ ج٢ ـ ص١٤١) ـ (الحفني ـ الموسوعة الصوفية ، ص١٠٧

للشبلي (ت:٣٣٤هـ)[١]:" نحن حبرنا العلم تحبيرًا ، ثم خبأناه في السراديب، فجئت أنت فأظهرته على رؤوس الملأ"[٢]، يفهم من كلام الجنيد أن علم الصوفية كان مكتومًا على أهله وقاصرًا قبل أن يظره الشبلي ، وكان هذا واضحًا بسبب ما آل إليه الأمر ، وادعاء الأدعياء له ، ونفور الناس منه.

لما ظهر علم التصوف بعد ما كتم،وتم تدوينه بعدما كان يؤخذ من صدور الرجال الثقات وادعاء الأدعياء له، وبالتالي إعراض الناس عنه، ونفورالقلوب منه، استوجب ذلك في فترة معينة تمييز المحققين من المدعين، وذلك عبر ماعرف في هذا العلم ـــ علم التصوف ـــ بالكرامات؛ وذلك حتى يتم تمييز المدعي من المحقق.

لقد كانت الكرامات ضرورة تاريخية–إضافة إلى ضرورتها الروحية– في زمن كثر فيه الأدعياء من جهة والمبطلون المنكرون من جهة أخرى، وكانت هذه الكرامات موجودة من البداية، ولكنها في القرن السادس الهجري كانت أكثر علنية وانتشارًا من القرون السابقة[٣]

لم يكن أكثر الصوفية أصحاب حرف يدوية، ولم يكونوا كما نسب إليهم من تسول وكدية ودروزة، وهذا يدل على خلفياتهم الإقتصادية والإجتماعية، وأيضًا قد جاء بعض مشاهير التصوف من خلفيات اجتماعية واقتصادية آخرى، فمنهم من كان من أبناء الملوك والأراء والسلاطين، مثل إبراهيم بن أدهم (ت:١٦١هـ)[٤] الذي كان من أبناء الملوك والمياسير[٥] ، وأبو علي الروذباري(ت:٣٢٢هـ)[٦] الذي يرجع نسبه إلى كسرى "[٧]

ولم يقتصر التصوف على جنس دون الآخر ، فالمرأة في الفكر الصوفي كان لها موقع أفضل مما هوعند رجال الدين في جميع النواحي التي تمس جوهرها البشري ، فهي إنسان سوي كالرجال ، فالتصوف الحقيقي لا يستعمل اللغة الذكورية في أي شأن

---

(١) الشبلي"هو أبو بكر دلف ابن جحدر، وقيل جعفر، وقيل جعفر بن يونس،وهكذا مكتوب على قبره ،المعروف بالشبلي الصالح المشهور الخراساني الأصل،البغدادي المولد والمنشأ،قرأ في أول أمره الفقه،وبرع في مذهب مالك ،وصحب الجنيد،له شعر جيد سلك به مسالك الصوفية ،وفاته ببغداد" (ابن خلكان –وفيات الأعيان –ج٢ –ص٢٧٣) (ابن العماد –شذرات الذهب–ج٤– ص١٨٩) (الزركلي – الأعلام – ج٢ – ص٣٤١)

(٢) الكلاباذي – التعرف لمذهب أهل التصوف – ص ١٠٦

(٣)(التل) عمر سليم– متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري – نشر : دار المأمون –ط١– ٢٠٠٩م–ص٥١

(٤) إبراهيم بن أدهم التميمي زاهد مشهوركان أبوه من أهل الغني في بلخ فتفقه ورحل إلي بغداد وجال في العراق والشام والحجاز وأخذعن كثير من علماء الأقطار الثلاثة وكان يشترك مع الغزاة في قتال الروم وكان إذا حضر مجلس سفيان الثوري وهو يعظ الناس أوجز سفيان في كلامه مخافة أن يزل،فيه اختلاف في نسبته ومسكنه ومتوفاه ،والراجح أنه مات عام١٦١هـ ودفن في حصن من بلاد الروم .(الأصبهاني – حلية الأولياء – ج٧ – ص ٣٦٧) (ابن خلكان – وفيات الأعيان – ص٣١) (الزركلي – الأعلام ج١ – ص٣١)

(٥) السلمي (ت:٤١٢هـ) – طبقات الصوفية – تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا – نسر : دار الكتب العلمية – بيروت – ص٣٥

(٦) الروذباري"هو أبو علي الروذباري،واسمه أحمد بن محمد بن منصور شهريار بن مهرذاذا بن فرغد بن كسرى، من أهل بغداد، سكن بغداد وصار شيخها، ومات بها،صحب الجنيد والنوري، كان عالمًا فقيهًا،عارفًا بعلم الطريقة، حافظًا للحديث، توفي سنة اثنين وعشرين وثلاث مائة (٣٢٢هـ)" (الأصبهاني – حلية الأولياء – ج١٠ – ص ٣٥٦) (السلمي –طبقات الصوفية – ص٢٧٠) (الذهبي – سير أعلام النبلاء – ج١٤– ص٥٣٥

(٧) نفس المرجع – ص٢٧٠

يمس المرأة ، بل أجاز التصوف تسليك المرأة وأن يتولاها شيخ ، فهناك مريد ومريـــدة ، وسالك وسالكة ، وعارف وعارفة،" فإلى جانب الرجال كان هناك نساء متصوفات ذوات أحوال ومقامات ، ولهن صحبة مع كبار مشايخ التصوف"[١]

ولو عدنا إلى المتصوفات السالكات في طريق التصوف نجد أنهن كثيرا ت،رغـــم أن كتب التاريخ والسير والتراجم لم تحتفظ لنا بالكثير من أخبارهن وحكايـــاتهن، ولـــذلك فقد كان هناك نساء متصوفات ولهن أحوال ومقامات، وقد استمر الأمر على هذا الحـــال في بغداد في القرن السادس الهجري ، إذ لم يكن التصوف مقصورًا على جـــنس أو فئـــة اجتماعية أو اقتصادية أو حتى سياسية دون آخرى.

ولقد كان لمتقدمي الصوفية باع في المرابطة في الثغور للغزو والجهاد، وليس ما شاع عن الصوفية من خمول وكسل، ومن مظاهر الضعف والتواكل، فلقد بـــذلوا الجهـــد في حياتهم في مدافعة الشر، واستجلاب الخير، وجهاد النفس والجهاد القتالي،وليس كـــل الصوفية، فموقف الصوفية من الإستعمارإذا أمعنا النظر فيه وجدنا أنه موقـــف متبـــاين، يسوده التذبذب و الإضطراب ، فبينما نـــرى طائفـــة مـــنهم أعلنـــت الجهـــاد وقاومـــت الإستعمار، وأقضت مضاجع المستعمرين ، نرى على الجانب الآخـــر طائفـــة آخـــرى ، نكصت عن الجهاد، ونكلت عن الحروب.

---

(١)(السلمي) أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين(ت:٤١٢ه) –ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات –تحقيق: محمود الطناحي– مكتبة الخانجي – القاهرة – ط١ – ١٩٩٣م –ص١٠

النتائج:

١–حب الأمراء والخلفاء للعلم والعلماء جعل بغداد مركزاً للحياة العلمية.

٢–لعبت مجالس الخلفاء العباسيين والوزراء السلاجقة دور كبير في الحياة العلمية والفكرية والذي أدى إلى اتساع حركة العلم.

٣– كان للمجالس العلمية العامة الأثر الواضح في تقدم وازدهار الحياة العلمية في بغداد وبلاد المشرق الإسلامي.

٤– شهد القرن السادس الهجري نضوج التصوف من حيث هو حركة إجتماعية كان لها الأثر الواضح في مختلف الجوانب الإجتماعية والسياسية والثقافية في بغداد.

٥– شهدت الفترة دور المرأة الواضح والمؤثر في الفكر الصوفي شأنها شأن الرجال.

٦– توترت العلاقة بين الفقهاء والصوفية إذ أنكر جماعة منهم علم التصوف.

المصادر والمراجع:

١. (سرور) محمد جمال الدين – تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق– نشر: دارالفكر العربي – ط٤ – ١٩٨٣م–
٢. (السيوطي) جمال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر الخضري(ت:٩١١ه) – تاريخ الخلفاء – تحقيق: محمد محيي الدين – نشر : مطبعة السعادة – القاهرة – ١٩٥٢––
٣. (ابن الجوزي) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي(ت:٥٩٧ه) – المنتظم في تاريخ الأمم والملوك – تحقيق : محمد عبد القادرعطا – مصطفى عبد القادر عطا – نشر : دار الكتب لعمية – بيروت –١٤١٢ه – ١٩٩٢م – ج١٧ –
٤. (الذهبي) شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (ت:٧٤٨ه) العبر في خبر من غبر– تحقيق : صلاح الدين المنجد – وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية – ١٣٨٦ه – ج٤ –
٥. (ابن أبي أصبيعة) أحمد بن القاسم بن خليفة بن يوسف (ت:٦٦٨ه) – عيون الأنباء في طبقات الأطباء – تحقيق : د . نزار رضا – نشر : دار مكتبة الحياة – بيروت –.
٦. ابن كثير(ت:٧٧٤ه)– البداية والنهاية– تحقيق:عبدالله بن عبدالمحسن التركي–دار عالم الكتب للطباعة والنشر –١٤١٧ه ١٩٩٧م– ج١٢ –
٧. ابن العماد الحنبلي (ت:١٠٨٩ه) –شذرات في أخبارمن ذهب –تحقيق : عبدالقادر الأرنؤوطي– محمود الأرنؤوطي– نشر : دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت – ج٤–
٨. (ذنون) فارس محمود – المكانة الإجتماعية للفقهاء في العراق في العصر العباسي – رسالة ماجستير غير منشورة – جامعة الموصل – ١٩٨٩م –
٩. (القرى) تقي الدين بن عبد الباقر التميمي (ت:١٠٠٥ه) – طبقات السنية في تراجم الحنفية – تحقيق: عبدالفتاح محمد الحلو– نشر : دار الرفاعي – الرياض – ١٤٠٣ه – ج٤ –.
١٠. (الذهبي) شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان(ت:٧٤٨ه)– تذكرة الحفاظ – نشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ١٤١٩ه– ١٩٩٨م–ط١ – ج٤–
١١. (الفراهيدي) الليل بن أحمد عبدالرحمن – العين – تحقيق– د: مهدي المخزومي/ د. إبراهيم السامرائي – دار الحرية للطباعة – بغداد – ١٤٠١ه– ١٩٨١م – ج٢ –
١٢. (أبو داوود) سلمان بن الأشعث بن إسحق – السنن – تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد– نشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٤١٤ه – ج٤
١٣. السبكي) أبو نصر عبد الوهاب بن علي –طبقات الشافعية الكبرى – تحقيق : عبد الفتاح الحلو – محمود الطناحي– ط٢– مطبعة هجر – مكة – ١٤١٣ه– ١٩٩٢م–ج٧–

١٤. ابن الجوزي– – المدهش– تحقيق : د. مروان قباني – نـــشر : دار الكتـــب العلميـــة – بيروت – لبنان – ط١ – ١٤٠٥ه – ١٩٨٥م – ج٩ – ص١٧٣ – ١٧٤.
١٥. الطوسي) أبونصرعبدالله بن علي أبو السراج (ت:٣٧٨ه) – اللمع في تـــاريخ التـــصوف الإسلامي– ضبطه وصححه:كامل مصطفى الهنداوي– دار الكتـــب العلميـــة –بيـــروت – ط١–٢٠٠١م
١٦. الجاحظ) عمر بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي ، أبـــو عثمـــان (ت:٢٥٥ ه) – الحيوان – تحقيق: عبدالسلام هارون – نشر مطبعة مصطفي الحلبـــي وأولاده_ ط٢ –ج٤ .–
١٧. (الكلاباذي) أبو بكر محمد بن إسحق (ت:٣٨٠ ه) – التعرف لمذهب أهـــل التـــصوف – ضبطه وعلق عليه: أحمد شمس الدين – ط١ – ١٤١٣ ه – ١٩٩٣ م –
١٨. المقدسي (ت:٣٥٥ه) – البدء والتاريخ – نشر مكتبة القافة الدينية – بورسعيد – ج٥ –
١٩. (النل) عمر سليم– متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري – نـــشر : دار المـــأمون – ط١– ٢٠٠٩م–
٢٠. السلمي (ت:٤١٢هـــ) – طبقات الصوفية – تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا – نـــشر : دار الكتب العلمية – بيروت – ص٣٥
٢١. السلمي) أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين(ت:٤١٢ه) – ذكر النسوة المتعبدات الصوفيات – تحقيق: محمود الطناحي– مكتبة الخانجي – القاهرة – ط١ – ١٩٩٣م –
٢٢. عفيفي) د. أبو العلا– الملامتية والصوفية وأهل الفتوة – نشر : دارإحياء الكتب العربيـــة عيسى البابي الحلبي وشركاه – ١٣٦٤ه – ١٩٤٥م – ص٢٦
٢٣. ابن أبي جرادة) كمال الدين عمر بن أحمد (ت:٦٦٠ه) – بغية الطلب في تاريخ حلـــب – تحقيق الدكتور: سهيل زكار – نشر : دار الفكر – بيروت – ط١ –١٩٨٨م – ج١٠–
٢٤. السمعاني) عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي المروزي أبـــو ســـعد (ت:٥٦٢ه) – الأنساب – تحقيق: ١٣٨٢ه– ١٩٦٢م– ج٤ – ص١٧٢
٢٥. عبد الوهاب) دكتور/ السيد محمد سيد – موقف الفقهاء من التفكير الفلسفي في الإسلام – ١٤٣٠ه–٢٠٠٩م –ص٣٦٦
٢٦.لسهروردي – منازل السائرين – طبع مصطفي البابي الحلبي – القاهرة – ١٣٢٨ه –
٢٧. بروكلمان) كارل – تاريخ الأدب العربي – نقله إلى العربية : عبد الحليم النجار – السيد يعقوب بكـــر – رمضان عبد التواب – نشر : دار المعارف – القاهرة –